مجلّة جامعة عدن للعلوم الانسانيّة والاجتماعية
EJUA-HS Vol. 3 No. 2 (2022)
https://doi.org/10.47372/ejua-hs.2022.2.164
ISSN: 2708-6275

مقالة بحثية

التأمل في الشعر الرومانسي والصوفي من الإشكالية إلى التحديد ـ مقاربة نقدية

أمين صالح أحمد العلياني*

قسم اللغة العربية، كلية التربية ـ صبر، جامعة لحج، اليمن

* الباحث الممثل: أمين صالح أحمد العلياني؛ البريد الالكتروني: aminalyani2020@gmail.com

استلم في: 02 يونيو 2022 / قبل في: 22 يونيو 2022 / نشر في: 30 يونيو 2022

المُلخّص

يسعى هذا البحث إلى قراءة بنية الخطاب التأملي في الشعر العربي الرومانسي والصوفي في العصر الحديث، ويحدد مكامن الإشكالية التي وقع فيها كثير من الدارسين من دون التفريق بين منزع التأمل في التجربتين الشعريتين، ومن ثم يوضح ملامح شعريته في كل تجربة في النصوص عينة البحث.

وقد جاء البحث منسرباً في هيكلية مكونة من مدخل يبيّن مفهوم التأمل، ومبحثين: يتناول في المبحث الأول شعرية التأمل في النص الرومانسي، والمبحث الثاني يتناول شعرية التأمل في النص الصوفي، ولمعالجة ذلك استند الباحث على المنهج التحليلي الفني لكشف ملامح الخطاب التأملي في النص الرومانسي والصوفي، واستجلاء تجلياته الواضحة في مسار كل تجربة من التجربتين يكون التأمل على وفقها قد بانت ملامحه، وتميزت خصائصه، ومقومات شعريته، وقد انتهى البحث إلى نتائج عدة أبرزها: إن التأمل في كل من الشعر الرومانسي والصوفي له موضوعاته المضمونية وتجلياته الفنية، بحيث استطاع الشاعر في منزعه التأملي في التجربة الرومانسية أن يؤسس شعريته التأملية على وفق منطلقات سلطة الموضوع وهيمنته المضمونية، ومعايشة الصراع الجدلي بين الخير والشر، واستلاب الذات أمام سطوة واقعها، وقوة سلطته، والهروب منه إلى عالم الطبيعة بوصفه عالماً بديلاً يحتوي معاناة الذات، ويؤمن مأساتها. في حين كان الشاعر في منزعه التأملي في التجربة الصوفية يؤسس تلك الشعرية على مسار سلطة العنوان، وفاعلية الذات، وقدرتها على الصعود إلى عالمها العرفاني، والسير بالتجربة الشعرية على وفق مستويات الرؤية التي تبتدئ بالتخلي عن عالمها الواقعي، ثم الحلول والتوحد والتماهي مع عالمها الروحي وصولاً إلى التجليات المحققة لتلك الحقيقة العرفانية.

الكلمات المفتاحية: التأمل، الشعر، الرومانسي، الصوفي، الإشكالية، التحديد.

المقدمة

يحتل التأمل أهمية كبيرة في التجربة الشعرية الرومانسية والصوفية، ويتجلى ذلك من خلال تمكن الشعراء في التجربتين الشعريتين من النظر إلى الطبيعة وما وراءها، والكون والنفس الإنسانية من جهة، أو التأمل في ذات الله من خلال الحب الإلهي، أو الحلول والفناء فيه من جهة أخرى. كما يتميز التأمل في التجربتين الشعريتين بالجرأة المخلصة، والرؤية الثاقبة، والاحتراف الإبداعي الخلاق، فاكتملت مؤهلات التميز الإبداعي والعطاء الفني المميز، حتى صار هذا التميز شتلة من شتلات إبداعهم، له فرادته المتمثلة في:

- القدرة على إبراز التأمل في التجربتين الشعريتين ورصده من خلال كشف الفروق بين مضامينه وفك حدود التداخل الذي وقع فيه كثير من النقاد في العصر الحديث عند معالجاتهم التحليلية من الناحية النقدية.
- تميز البنية الفنية بسمات تتجلى من خلالها شعرية التأمل في الشعر الرومانسي والصوفي من الناحية الجمالية والفنية.

ولذلك كانت النصوص الشعرية عينة البحث غنية بمنزع التأمل في التجربتين الشعريتين، ويأتي هذا البحث؛ ليكون أول دراسة تعالج التأمل في الشعر الرومانسي والصوفي، ومحددة ملامح الفروق بحسب علم الباحث، ويأمل هذا البحث أن يفتح أبواباً لدراسة تلك الفروق على تكاملها، وتعدد زوايا النظر إليها؛ إذ إن هذا البحث سيقتصر على تحديد شعرية التأمل في تجارب عدد من الشعراء من مختلف الأقطار العربية في التجربتين الشعريتين الرومانسية والصوفية في العصر الحديث، تحت مبررات يسعى البحث إلى تحقيقها، تتمثل في تحقيق خطوط دقيقة ومفصلية في شعرية التأمل في النص الرومانسي والصوفي، مع تصحيح ذلك الخلط الذي وقع فيه كثير من الدارسين في المفهوم ذاته.

وهناك دراسات تناولت التأمل في الشعر الرومانسي والصوفي ووقعت في خلط واضح في التأصيل المفهومي والمعالجة التحليلية أبرزها:

(1) النزعة التأملية في الشعر العربي الحديث (الرابطة القلمية نموذجاً2015م)، فاتح علاق، كتاب صادر عن دار نينوى للدراسات والنشر[1]. وعند التمعن في محتوى الكتاب وجد البحث أن الباحث قد وقع أسير تنظيرات فلسفية لمصطلح التأمل بمفهومه الفكري الواسع من دون تحديد أي اعتداد موضوعي، ولا فني، ولا نوعي لحقيقة الشعر الذي احتوى هذا التأمل بالرغم من تحديد الرابطة القلمية عينة الدراسة، وكل

[1]- ينظر: علاق، فاتح (2015م): النزعة التأملية في الشعر العربي الحديث(الرابطة القلمية نموذجاً)، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق.

شعرائها ينتمون إلى المدرسة الرومانسية، وهو الأمر الذي جعل عملية التنظير تتكرس في شرح مفصل لمصطلح التأمل، وبصور لا ترى معها الفروق الدقيقة بين التأمل بمفهومه الرومانسي، ولا التأمل بمفهومه الصوفي. وهذا الإجراء التعميمي قد استساغه هذا الباحث من دراسات سابقة وجدها هذا البحث واضحة الأثر في محتوى الكتاب عند التنظير والمعالجة التطبيقية من جهة، والتأصيل التاريخي للمصطلح بمفهومه العام من دون أن يربطه بمحتوى التجربة الشعرية، ونضوجها الفني، وتحولاتها الإبداعية، والدوافع الباعثة لظهوره من جهة أخرى.

(2) النزعة التأملية في الشعر العربي الحديث (إيليا أبو ماضي نموذجاً2019م)، معزيز مختارية، أطروحة دكتوراه[2]. وعند التمعن في محتوى الأطروحة العلمية يجد البحث أن الباحث قد وقع أسير تقسيمات فاتح علاق، وتنظيراته الفكرية التعميمية التي سبقه في التناول. وعند تحقق البحث من عملية المهاد النظري والمعالجة التطبيقية في تحليل النصوص الشعرية رأى أن الباحث قد تناول التأمل بصور تعميمية من دون تحديد أي مفهوم للتأمل، ولا ضوابط تفصح عن الفروق في ملامحه -عينة الدراسة-، غير أنه خلص إلى نتائج كشف فيها عن توجهه في تناول التأمل بمفهومه الرومانسي، في الوقت الذي كانت عملية تحليل النصوص ومناقشتها تفصح عن تناول عام من دون تحديد لنوعية الخطاب الشعري الذي خرج به من التأمل الرومانسي إلى التأمل بمفهومه الصوفي، وهذا ما أوقعه في اضطراب واضح ينم عن عدم استيعابه لمفهوم التأمل بدقة.

(3) الاتجاه الصوفي في الشعر المهجري مكوناته وملامحه (2019م) عبد الكريم سليمان بحث علمي منشور على الإنترنت[3]. وعند قراءة هذا البحث محتوى الخطاب الصوفي وجد أن الباحث تناول التصوف في مسارين: مسار الروافد والدوافع إلى التأمل في المتجه الصوفي، ومسار تحليلي أخذ عينة من النصوص الشعرية لعدد من الشعراء المهجريين. وعند التمعن في معالجة النصوص الشعرية وتحليلها واستقرائها عينة الدراسة وجد البحث أن الباحث لم يفرق بين التأملات الباعثة إلى التأمل في الطبيعة وما وراءها التي هي من ميزات التجليات الرومانسية، وبين التأملات الباعثة للتجليات الصوفية. وهذا الخلط الواضح يرجع إلى عدم استيعاب الباحث ضوابط التأمل في التجليات الصوفية المنسربة في التخلي والحلول والتجلي التي تتمثل في الأبعاد النفسية والفلسفية. ويتكشف ذلك في انطلاق الباحث في تناول مفهوم التأمل الصوفي من رؤية الطبيعة والنظر إلى الكون واصفاً ذلك منطلقاً رُؤَوِيَّاً للتصوف والتجليات العرفانية.

(4) النزعة الصوفية في أدب جبران خليل جبران(2020) شاكر فريد حسن مقالة نقدية على الإنترنت[4]. وعند القراءة الفاحصة في محتوى المقالة النقدية وجد البحث أن الباحث انطلق في معالجته النقدية من مفهوم رومانسي للتصوف، وهو الأمر الذي أوقعه في خلط واضح لمفهوم التأمل في الرؤيتين الرومانسية والصوفية. وتكشفت أوجه هذا اللبس جلياً في منطلقات الرؤية التحليلية لا سيما في كتابه الموسوم بـــ(النبي). ويرجع هذا الخلط عند الباحث إلى عدم وضوح الرؤية الكاملة لماهية التصوف وأبعاده النفسية والفلسفية من جهة، ومستويات السمو الروحي، والانتقال من التخلي إلى الحلول وصولاً إلى تجليات الكشف، ومعرفة الحقيقة العرفانية من جهة أخرى.

ويأتي هذا البحث محاولة منه لفضّ الاشتباك والتداخل الذي وقع فيه كثير من الدارسين في أثناء معالجتهم مصطلح التَّأمل نقدياً وتحليلياً في التجربتين الشعريتين الرومانسية والصوفية بالرغم من تشابه الروافد والأسباب التي دفعت الشعراء إلى استعمال هذا المصطلح. ولكي يثبت البحث هذا الخلط فإنه سيقوم بتناول كل ذلك بالتفصيل في كل تجربة شعرية على حدة.

وقد جاء هذا البحث مكوناً من مدخل يبيّن فيه مفهوم التأمل من حيث معانيه اللغوية، والاصطلاحية، والبلاغية، والفلسفية، وأخيراً في النص الشعري، ثم الوصول إلى هيكله الذي انسرب في مبحثين: جاء المبحث الأول ليبين شعرية التأمل في النص الرومانسي، والمبحث الثاني يتناول شعرية التأمل في النص الصوفي، ومختتمة الدراسة بنتائج وقائمة للمصادر والمراجع.

المدخل:

التَّأمُّل في اللُّغة مشتق من الجذر (أمل)، وتأمَّل، و"التأمُّلُ: التَّثبت، ويقال: تأَمَّلت الشيءَ أَي نظرت إِليه مُستثْبِتاً له، وتَأَمّل الرجلُ تَثَبَّت في الأَمر ونظر"[5]. وقيل تأمّل الشيء: إذا حدق نحوه، وقيل: تدبره، وأعاد النظر فيه مرة بعد أخرى ليتحققه"[6]. ونستنتج مما سبق: إنَّ التَّأمّل لغة يعني به التَّثبت، وإعادة النظر في حقيقة الأمور.

التَّأمُّل في الاصطلاح: تعددت تعريفاته في المرجعيات النقدية والنفسية والفلسفية من حيث المفهوم والمصطلح، فذهب بعض النقاد إلى عدّه "ثمرة التفكير العميق الذي يمتاز به الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى، فهو مراجعة النفس، واسترجاع الخبرات الشخصية، والأفكار والمشاعر الباطنية، وتحليلها"[7]. ويذهب آخر إلى عدِّ التأمل مصطلحاً ينسحب على "استغراق الذهن في موضوع تفكيره إلى حدٍّ يجعله يغفل عن الأشياء الأخرى، وليس هذا فحسب، بل حتى عن أحوال نفسه".[8] ويقابل مصطلح التأمل في اللاتينية (Meditatio Contemplation,) والإنجليزية (Contemplation, Meditation)، والفرنسية (Méditation Contemplation,)، وهم يقصدون به تفكير عميق وطويل في موضوع معين

---

[2]- ينظر: مختارية، معزيز (2019م): النزعة التأملية في الشعر العربي الحديث (إيليا أبو ماضي نموذجاً، مقاربة تحليلية)، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي ليابس/ سيدي بلعباس، كلية الآداب واللغات والفنون، الجزائر.

[3]- ينظر: سليمان، عبد الكريم(2019م): الاتجاه الصوفي في الشعر المهجري مكوناته وملامحه، بحث منشور على الإنترنتhttps: ://dergipark:/Org.tr

[4]- ينظر: حسن، شاكر فريد(2020م): النزعة الصوفية في أدب جبران خليل جبران، مقالة نقدية على الإنترنت، https: ://short. Link. Alittihad44.com:/w3j5

[5]- ابن منظور، أبو جمال الدين بن مكرم (1994م): لسان العرب، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان مادة(أمل)، ص27.

[6]- الزبيدي، محمد بن المرتضى(د.ت): تاج العروس في جواهر القاموس،(د.ط)، دار الحياة، ص314.

[7]- الجردي، وحدة أمين(2005م): أدب التأمل عند المنفلوطي دراسة في نصوص النظرات والعبرات، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، ص17.

[8]- القرني، عبد الله بن ظافر(1422هـ/2001م): ظاهرة التأمل عند شعراء الشام، أطروحة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، قسم الآداب، ص3.

يحاول أن يستخرج جوانبه العامة، وهو مرادف للتفكير، والتفحص، والدرس العميق. وقد يطلق التأمل بهذا المعنى على استغراق الفكر في موضوع ديني، كما في الصلاة التي يرتفع فيها العقل إلى الله ليشكر له نعمته وإحسانه[9].

والتَّأمّل في الموسوعة النفسية يقصد به" توجيه الذهن صوب التجارب والمفاهيم والمدركات والأفكار عن طريق الاستغراق في التفكير؛ بغية اكتشاف علاقة جديدة، واستخلاص نتائج يسترشد بها الفعل في المستقبل"[10]. بينما التَّأمّل من الناحية الفلسفية هو "استعمال الفكر بخلاف التدبر الذي هو تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتَّأمّل بهذا المعنى مرادف للنظر والتفكير ومقابل للفاعلية والنشاط العقلي"[11].

ويتبنى البحث مصطلح التَّأمّل الذي يستوعب التعبير عن الرؤية الفكرية بمفهومها الواسع، ويقصد بها النظرة إلى الطبيعة وما وراءها والكون والنفس الإنسانية كما تجلى ذلك في الشعر الرومانسي وصارت من خصائصه المميزة، وسماته الخاصة به، أو النظرة إلى الذات الإلهية، والفناء، أو الحلول فيها كما تجلى ذلك في الشعر الصوفي، وصارت من سماته الخاصة على وصف أن التَّأمّل في التجربتين الشعريتين كانت حصيلة معاناة لذات الشاعر مع واقعها، وقامت على محاور كونية متقاطعة يكون الشاعر في مركزها مع الحياة بكل أبعادها بعد أن خبرها واستوعبها، وصار من مركزها يبث رؤاه عن تلك المحاور في اتجاهاتها المختلفة؛ بهدف إغناء تجربته[12]؛ لكي تبدو ذات رؤية شمولية للواقع والأشياء والكون والنفس الإنسانية والذات الإلهية وفنائها وموقفها أو فلسفتها، التي يعبر عنها بطرائق وأساليب مختلفة، كانت هي وسيلته لإبداع عالمه الجديد[13]، الذي تمثل شعرياً في رؤيتين: رؤية مع الخلق الإبداعي الرومانسي، ورؤية مع الخلق الإبداعي الصوفي في العصر الحديث.

المبحث الأول:

شعرية التأمل في النص الرومانسي

يمثل التَّأمّل في الشعر الرومانسي الحديث رؤية ذهنية تتعلق بالتفكير العقلي الذي يعتمد على التصور والخيال؛ بغية في الوصول إلى المتعة الفنية، وتحقيق القيمية الجمالية للفن من خلال النظرة إلى الطبيعة وما وراءها، أو إلى الكون. وعلى هذا جاءت أكثر التأملات والتساؤلات معبرة عن معاناة الشعراء الذين عايشوا مرارة الواقع، وقسوة الحياة، فكثر في شعرهم الأنين والحنين والحيرة والشك والألم والأمل[14]، مما جعلهم مضطرين في تأملاتهم الفريدة والمميزة إلى الهروب واللجوء إلى:

- التَّأمل في الطبيعة وما وراءها.
- التَّأمل في الكون وقوانينه.
- التَّأمل في مصير الإنسان بعد الموت، وتفضيله الموت على الحياة.

إذن، فالتأمل في الشعر الرومانسي "يغوص في أعماق النفس البشرية باحثاً عن الحقيقة والكمال والجمال والخير؛ ليقرب الناس بعضهم من بعض تحت لواء المحبة الإنسانية الشاملة ويقدم للبشرية سعادة روحية وأدباً روحياً يصل بالعواطف السامية عند الإنسان"[15] إلى غايتها المرجوة وجوهرها المثالي.

وعلى هذا أصبح الشاعر الرومانسي "يتأمل تأملاً عميقاً في النفس البشرية، وفي الحياة باحثاً عن جواهرها بشوق عظيم، فآمن الشاعر بنفسه والقيم الروحية الصادرة عن القلوب البشرية، ونظم قصائد فيها وحدة الموضوع وعالج فيها مواضيع روحية يشعر فيها كل إنسان في كل مكان".[16]

يرتبط التأمل الرومانسي بمجموعة من الدلالات تجتمع كلها عند نقطة واحدة، وهي هروب الشاعر الرومانسي ونزوعه من العالم المادي إلى العالم الخيالي(المثالي)، وصراعه مع كل ما يعيق ذاته أو يفصلها عن عالمه المثالي المتحقق شعرياً. إنَّه لجوء تعبيري مقصود من داخل الذات إلى خارجها الموجود في الطبيعة والكون اللذين ترى فيهما ملاذاً آمناً، والدال على المثالي بديلاً عن الواقع الذي عايشته الذات في عالمها المادي بفعل الغربة أو الواقع السياسي من أجل الوصول إلى غاية فلسفية جمالية تحقق طوق النجاة الذاتية من ربق المعاناة، ومآسي الواقع، وآلامه.

كما نجد تجارب تأملية كثيرة في الخطاب الإبداعي العربي عامة، والإبداع الرومانسي خاصة، وهي ملامح تأملية تسم الأعمال الإبداعية بطوابع فلسفية، وتكشف عن الحالة الاغترابية التي عايشها الشاعر الرومانسي في عالمه المادي بتلك الظروف الاجتماعية والنفسية والفكرية. وبما أن التجربة التأملية لم تحصرها الدراسات السابقة والمشتغلون على المنزع التأملي في سمات وخصائص تميز التأمل في الخطاب الشعري من تجربة إلى أخرى، فإن هذه الدراسة قد حاولت أن تركز على الفروق التي تمتاز بها التجربة التأملية الرومانسية عن التجربة التأملية الصوفية،

---

[9]- صليبا، جميل(1982م): المعجم الفلسفي، (د.ط)، الجزء الأول، دار الكتب اللبناني، بيروت، ص233.
[10]- رزق، أسعد(د.ت): موسوعة علم النفس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص79.
[11]- صليبا، جميل(1982م): المعجم الفلسفي، ص232.
[12]- ينظر: جابر، يوسف (1991م): قضايا الإبداع في قصيدة النثر، ط1، دار الحصاد، دمشق، ص180.
[13]- ينظر: الجلبي، آن تحسين: (2004م): الرؤية في شعر ذي الرمة، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد16، العدد8، ص520.
[14]- ينظر: خفاجي، محمد عبد المنعم(1980م): قصة الأدب المهجري، ط3، دار الكاتب المصري، القاهرة، 303.
[15]- مختارية، معزيز: النزعة التأملية، مرجع سابق، ص12.
[16]- ملحس، ثريا عبد الفتاح(د.ت): القيم الروحية في الأدب العربي قديمه وحديثه، ط1، دار الكتب اللبنانية، بيروت، ص214، 215.

وتحصرها في المنظور التأملي الذي يحتضن الطبيعة والكون والبحث عن مصير الإنسان وصراعه بين البقاء والفناء بوصفها أنماطاً تجتر من الرومانسية فلسفتها منذ ظهورها إلى وقتنا الحاضر.

إنَّ الشاعر الرومانسي في مجموع إبداعه التأملي يسعى إلى إعادة النظر في الذات وعلاقاتها بالعالم المادي انطلاقاً من استحضاره للفكر الفلسفي الرومانسي، واشتغاله على قاعدته المنهجية والفلسفية التي تعيد العلاقة الجدلية بين الذات وعالمها المادي والهروب باتجاهات موضوعية ترى فيها الذات أكثر أماناً وطمأنينة.

كما وجدت هذه الدراسة بعد تأمل عميق أن المهيمن على الخطاب التأملي الرومانسي هو الموضوع باعتداده سلطة نصية مهيمنة، والصراع الجدلي بين الخير والشر تحقيقاً لتفاؤلها من أجل استمرارية الحياة، واستلاب الذات وتراجعها أمام سطوة الواقع وقسوته.

1. الموضوع بكونه سلطة نصية:

تعد الطبيعة سلطة نصية مهيمنة تلجأ إليها الذات الشاعرة الرومانسية؛ لتتخذ منها ملاذاً آمناً تطرد به غربتها ومعاناتها الأليمة مع واقعها الكئيب، وتشرع من خلاله إلى خلق عوالم أكثر خيالاً، تتوق عبرها إلى الاندماج؛ لتتمكن الذات في الأخير من ابتكار عالمها الخاص الذي تراه خلاصاً لها من أوجاع الحياة وآلام الواقع.

كذلك تعد الطبيعة من أكثر الموضوعات التي تصدرت مساحات نصية كبيرة في الشعر التأملي الرومانسي؛ ليتخذ منها الشاعر ملاذاً آمناً لخوفه وقلقه، ويحقق عبرها هدوءه وطمأنينته من جهة، ويستلهم منها أسراره وتأملاته الفلسفية في الحياة من جهة أخرى، كما في مطولة جبران خليل جبران(المواكب) يقول[17]:

ليس في الغابات موت لا ولا فيهـــا قبـــــور
فـــإذا نيســـان وَلَّـــــــى لم يمت معه السرور
إنَّ هــول الموت وهـــمٌ ينشئ طـيَّ الصـــدور
فالذي عـــــاش ربيعـــاً كالذي عاش الدهـور

فالنفي حين يتصدَّر بنية النص يكشف عن سلطة الموضوع(الغابات) بوصفها مساحة نصية مهيمنة لا يشغلها تفكيرٌ علويٌ قدريٌ مؤقتاً (موتاً) ولا تفكيرا أرضيا واقعياً (قبوراً)، بل صار عالماً تأملياً موصوفاً بالاستمرارية(لم يمت معه السرور) الدال على خلود الحياة وتجددها وليس هذا فحسب، بل حتى الموت أصبح معها وهماً. فالشرط باعتداده أسلوباً لغوياً في البيت الثاني (فإذا نيسان ولى) جاء ليحقق إثبات غاية الموت المؤقت والمقصود به (نسيان) غير أن النفي (لم يمت) جاء استدراكاً يؤكد على ديمومة هذا الخلود المرموز له بالسرور. وتأتي أداة التأكيد (إنَّ)، والتشبيه (كالذي) لتكشف حقيقة هذا البعد التأملي الباعث على خلود الحياة؛ لكي يصبح النزوع إلى التأمل غاية فلسفية ومعرفية في آنٍ معاً.

وتتجدد صيغة الموضوع بكونه سلطة نصية عند إيليا أبي ماضي مشكلةً حقلاً دلالياً، تبدو فيه ومن خلاله الطبيعة عالماً علوياً تستمد منه الذات معاني التأمل الفلسفية، حيث يقول :[18]

وإذا ما كفـن الثلج الثـــــرى وإذا مـا ستر الغيم السمـــــــاء
وتعرَّى الروض من أزهـــــــاره وتوارى النور في كهف الشتاء
فاحلمي بالصيف ثم ابتسمي تخلقي حـــــولك زهـراً وشـــذاء

وهكذا تشكل موضوعات الطبيعة (الثلج والغيم والسماء) حقلاً دلالياً تتحرك فيه الأبعاد الدلالية بطريقة تعضد الرؤية الفنية التي يرسمها المتن الشعري بوصفها عطاءات علوية واهبة؛ لتشكل خطابا تأملياً رومانسياً، يستمد منه عالم الذات السفلي (الروض، الأزهار، الأشذاء) هبات الحلم والخلق من جهة، وتتوالد عبرها جملة من الرؤى التي تتشكل معادلاً موضوعياً يحدد الزمن (الصيف/ الشتاء) فيها دورة الحياة في مستوييها الواقعي والتخييلي من جهة أخرى.

وعلى نحو ذلك تشكل الريح والنسيم والموج والبحر والبرق والرعد والليل والفجر مساراً صورياً يتمظهر في البداية في قشيب لغوي؛ ليتحد في المنتهى مساراً رمزياً، مشكلاً بُعداً تأملياً يتمثل في عالم الطبيعة والرحيل منه إلى العالم العلوي المقدس (الإله) كما يقول ميخائيل نعيمة:[19]

إيه نفسي! أنتِ لحنٌ فيَّ قد رنَّ صداه
وقعتك يد فنان خفيّ لا أراه
أنتِ ريحٌ ونسيمٌ! أنتِ موجٌ، أنتِ بحرٌ

[17]- خليل، جبران(2005م): المجموعة الشعرية الكاملة، ط1، بيروت، لبنان، ص300.
[18]- أبو ماضي، إيليا(2016م): الديوان، ط1، مكتبة دار الهلال، مصر، ص134.
[19]- نعيمة، ميخائيل(2004م): همس الجفون، ط1، مؤسسة نوفل، بيروت، ص19.

أنتِ برقٌ، أنتِ رعدٌ، أنتِ ليلٌ، أنتِ فجرٌ

أنتِ فيضٌ من إله.

وبناء على ذلك يظل الموضوع سلطة نصية مهيمنة يصبح معها جزءاً لا يتجزأ من الرؤية العامة التي يقدمها المتن الشعري، وينبني عليها رؤية ورؤيا تمهد للدخول في عالم التأمل الرومانسي وخباياه الدلالية.

2. جدلية الصراع بين الخير والشر:

يعرف التأمل الرومانسي بأنه نزعة فلسفية تتوجه إلى نبذ العقل، والسير صوب الوجدان؛ ليكون خطاباً تعبيرياً منطلقاً من رؤية شعورية تهدف للوصول إلى غاية تتمثل في الحصول على معرفة فلسفية، ورؤيا تتصف بانتصار الخير على الشر.

وتتجلى هذه النزعة من خلال النصوص الشعرية التي تحتضن هذا الصراع الأزلي بين الخير والشر، وغالباً ما يكون فيها انتصار للخير على الشر، وبهذه النزعة الفلسفية لا يعني أن الخير أقوى من الشر في نظر الشاعر الرومانسي في تأملاته، بل هي أن الخير خالد بخلود الحياة، وهو الأمر الذي جعل الرؤية التأملية في الشعر الرومانسي تتفاعل به، وتنتصر لخلوده، كما يقول إيليا أبو ماضي:[20]

كن غديراً يسير في الأرض رقراقاً قيسقي من جانبيه الحقولا

لا وعـــــــاء يقيد المـــــــــاء حتى تستحيل المياه فيه وحـــــولا

تشكل ألفاظ (الغدير، رقراقاً، والماء) حقلاً دلالياً تتحرك فيه الأبعاد الدلالية التي تجعل المتن الشعري يمنحها عطاءات دالة على الخير والصفاء، وتسمو بهذا الخطاب التأملي الرومانسي إلى أبعاد فنية دالة على الاستمرارية، فالحياة (الغدير) حين تسير في خطى الخير لا تستطيع أوعية الشر أن تعكر أو تقيد من صفوها، وليس لشيء وإنما لأنها خيّرة في أصلها (حقولها) من جهة، ولأن قيمة الشر إليها ضئيلة وطارئة من جهة أخرى. وبهذا تتوالد موضوعات الحياة مشكلة جملة من الرؤى التي تشكل معادلاً موضوعياً للخير الذي يبقى أمداً طويلاً مقارنة بموضوعات الفناء التي تشكل معادلاً موضوعياً للشر الطارئ وسريع الزوال.

وفي قصيدة فلسفة الحياة تتجلى تأملات الشاعر إيليا أبو ماضي، ويظهر فيها بوضوح انتصاره للتفاؤل على حساب الشكوى من شرور الحياة حيث يقول:[21]

أيُهذا الشاكي ومـــــــا بـــــك داءٌ كيف تغدو إذا غدوت عليـــــلا

إنَّ شر الجناة في الأرض نفسٌ تتوقى قبل الـــــــرحيل الرحيـــــلا

وترى الشوك في الورود وتعمى أن ترى فوقها النـــــدى إكليـــلا

تبدو ذروة الصراع ــ هنا ــ في محاولة الذات القضاء على جوهر الشر، ووجوده المحوري في (النفس) بوصف النفس موطناً للخير والشر معاً، ولهذا جاء النداء بوصفه أسلوباً إنشائياً يجعل من الخطاب التأملي الرومانسي في حركة قائمة على الحوار بين التفاؤل القائم على الخير، والتشاؤم القائم على الشر، ويدفع هذه الحركية نحو الذروة المتمثلة في انتصار الخير على الشر.

وبهذا جاء النداء متبوعاً بالاستفهام؛ ليكشف عن حقيقة هذه النفس التي تحتضن نوازع الشر الطارئ على فطرتها المجبولة على الخير الدائم هذا من جهة، والإفصاح عن فعل الشر الذي لا ينسجم مع عالم النفس الخيري من جهة أخرى. وحينما يشتاق عالم الذات إلى نوازع الشر المشار إليه بـــ(الشوك) فهي حتماً لا ترى الوجود الجميل في عالم الطبيعة الموازي لطبيعة عالم الذات الخيري المشار إليه بـــ(الورود والندى).

3. استلاب الذات:

يشكل استلاب الذات في الشعر التأملي الرومانسي مظهراً واضحاً يعود إلى سلطة الموضوع (الواقع) الفاعل في غربتها ومعاناتها وإحساسها بالظلم حتى تبدو متراجعة عن فاعليتها ومهزومة ممزقة عن هويتها، وتتموضع معيارياً في رتبة المفعولية. فالذات قد" تتوحد مع العالم الذي تنظر إليه؛ لأنها تنظر إليه بعين الفن بما هو شكل ولون، ولا تنظر إليه على أنه ذاتُه العادية"[22]. وبهذا صارت الذات في النص التأملي الرومانسي غريبة حائرة تمتلكها حالة من القلق النفسي والاغتراب الروحي كما تجلت في تأملات الشاعر ميخائيل نعيمة في قوله :[23]

أسيرُ في طريقي في مَهمَه سحيـق

ووحدتي رفيقـــي ووجهتي الفضـــا

مطيتي التـــــراب وخوذتي السحاب

ودرعي الســـــراب ورائدي الفضـــا

---

[20]- أبو ماضي ، إيليا(2016م): الديوان، مصدر سابق، ص176.
[21]- المصدر نفسه، ص604.
[22]- الحميري، عبدالواسع(1999م): الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ص45.
[23]- نعيمة، ميخائيل(1988م): همس الجفون، مصدر سابق، ص52.

تسوقني الثوانـــي في موكب الزمان

ولست أدري شأني في معرض الورى

فهي ذات أسيرة تتوحد داخل فضاء مغلق؛ ليسوقها الزمن (الثواني) في موكب مخيف إلى غاية لم تستوعب نهايته؛ لتتخلَّق عنها ذات معبرة ومرئية؛ بهدف إثبات أحقيتها، بعد أن عاشت صراعاً محتدماً مع موضوعها الذي يشير إلى حالة من اللا تناسق بينها وبين نصها.

إنَّ هيمنة ثيمات الاستلاب في(طريقي، وحدتي، رفيقي، وجهتي، مطيتي، خوذتي، رائدي، تسوقني)، وتعددها في النص يوحي بذات تتشوق إلى الخلاص من الانقسام والتمزق الروحي الذي يشف عن انقسامها وانشطارها إلى ذوات متعددة، مما يجعلها في الأخير تمضي في تساؤل كاشف عن احتراق مصيري عن معنى وجودها(لست أدري)، الذي يشي بشعور من التلاشي الوجودي.

وتظل هذه الذات في النص التأملي الرومانسي في حالة بحث مستمر عن كينونتها المستلبة في ظل الصراع الذي يحتضن عالمها الداخلي، بعد أن اجترتها الأسئلة الحائرة التي تمزق كينونتها كما يقول نسيب عريضة :[24]

دعني وشأني وهل يعنيك من شأني حديث همٍّ وآلامٍ وأشجـــــــــــــانِ

يا صاحبي، يا أخي مالي فيك أربٌ إلا مقالك "عمَّ صباحاً" وتنساني

أنت الخليُّ ولي حظّ الشجيّ فـــــلا يعديك مني شفاء العاثر العاني

فخلّ عنـــــــــــك ودع قلبي أعتِّقــه فصدقُهُ بين كذب الغير أعيانـــي

فالتساؤل هنا (وهل يعنيك من شأني) جاء ليعمق الشعور بالانفصال عن العالم المادي الخارجي، ويخلق فضاءً مشحوناً بالتوتر والحيرة؛ ليأتي النداء تالياً بوصفه صيغةً خطابيةً قادرةً على خلق مشاهد حوارية مع ذات فاعلة ومعبرة ومرئية؛ بهدف إثبات أحقيتها وأولويتها من جهة، وقادرة على مواجهة هذا العالم المغلق الباعث للاستلاب من جهة أخرى.

وتستمر هيمنة هذا العالم المادي عند الشاعر رشيد أيوب، فتبدو الذات الشاعرة في تأملاتها الشعرية قادرة على استعادة هذا الاستلاب المطبق كما يقول:[25]

ولما رأيت المال يستعبد الورى وآمال نفس الحر تقضي بأن يحيا

عكفت علـــــى الإقلال علماً بأنه يلذ لنفسي الانتصار على الدنيا

وبناء على ذلك تظل ذات النص قادرة على تخطي سلطة الواقع المادي في التأملات الشعرية الرومانسية، وتنتصر في أحايين معينة بعد أن يقدمها المتن الشعري(علماً بأنه يلذ لنفسي الانتصار على الدنيا)، وينبني عليها رؤية ورؤيا تمهد للدخول في عالم التأمل الرومانسي وخباياه الدلالية.

المبحث الثاني

شعرية التأمل في النص الصوفي:

يمثل التَّأمّل في الشعر الصوفي الحديث رؤية روحية تتعلق بالتفكير الروحي الذي يعتمد على الذوق؛ بغية الوصول إلى المعرفة والحقيقة العرفانية. وعلى هذا يبدو التأمل في الشعر الصوفي على أنه حالة من الفقد للشعور عما يحيط بالشاعر من محسوسات لكنه يسمو بتجربته الشعرية نحو الروح، ويجنح بها إلى:

- الزهد والغزل والحب الإلهي.
- التَّأمل في عظمة الخالق. والفناء أو الحلول فيه.
- قداسة المحبوب كالخمرة.
- تأنيث المعشوق.

وبهذا فالشعراء الصوفيون "يعبرون عن مواجيدهم، وتجاربهم الخاصة، وعواطفهم المكبوتة وشوقهم للمحبوب الأول، ورؤيتهم الجمالية في الموجودات على وفق تصوراتهم المنتظمة في خطاباتهم الشعرية".[26]

[24]- عريضة، نسيب (1946م): الأرواح الحائرة، ط1، مطبعة جريدة الأخلاق، نيويورك، ص49.
[25]- أيوب، رشيد (1982م): أغاني الدرويش،ط1، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك، ص98.
[26]- عبيدلي، أحمد (2005م): الخطاب الصوفي في الشعر المغربي في القرنين السادس والسابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ص63.

والتأمل في عظمة الله - عبر الحب الإلهي- هو تعبير عن النفس، وما يعتريها من حالات مختلفة كالجذب والوجد والقبض والبسط. أما التأمل في الفناء والحلول في ذات الله فهو تعبير فلسفي عن الحب بعد أن ربطوه ببعض الاصطلاحات المختلفة كالتخلي والحلول والتجلي. فالتأمل في الفناء هو إسقاط الأوصاف المذمومة بعد مجاهدة ينتقل منها إلى ما هو أرقى منه يتمثل في الاستغراق في عظمة الخالق ومشاهدة الحق بعين البصيرة.[27]

يرتبط التأمل في الشعر الصوفي "بجملة من الدلالات، تجتمع كلها عند نقطة واحدة، هي نزوع المتصوف نحو نبذ العالم المادي واستبداله بالزهد، وصراعه مع كل ما يفصله عن كل ما هو روحي، إنه عودة (الروح) الدال على النقاء كبديل للخارج المدنس(الجسد) من أجل الوصول إلى الكمال"[28].

والتأملات الصوفية لها ملامح في الخطاب الإبداعي منذ العصر القديم حتى العصر الحديث والمعاصر، وهي ملامح تصبغ الأعمال الأدبية بالروحانية والسمو، وتكشف عن الحالة الاجتماعية والفكرية في النصوص الأدبية التي اشتغل عليها كثير من الباحثين بالدارسة والنقد حتى قعَّدوا لها قواعد، وقولبوها؛ ليحصروها في الزهد، والغزل، والحب الإلهي، والتأمل في عظمة الله، والفناء، والحلول فيه، وربطوها في رموز وإشارات لا تفهم إلا في سياقاتها المرجعية الصوفية حتى وصلوا بها إلى أن جردوها من عالمها الصوفي النقي أو كونها تجربة صوفية ثرية، تقوم على خلق توازن بين عالمي المادة والروح كما تجلت في الشعر المعاصر[29].

والشاعر الحديث والمعاصر في تأملاته الصوفية "يسعى في إبداعه إلى إعادة النظر في الذات وعلاقتها بالعالم انطلاقاً من استحضاره للفكر الصوفي، واشتغاله على قاعدته المنهجية والروحية، ويعيد النظر في فكرة التصوف ذاتها التي ارتبطت بالكثير من أقطاب الصوفية كوسيلة نجاة فردية للقطب ذاته؛ لتغدو لدى الشاعر المعاصر وسيلة نجاة جماعية للمجتمع ككل"[30].

وتسعى هذه الدراسة إلى تناول شعرية التأمل في النص الصوفي عبر ثيمات تتجلى في الآتي:

1. شعرية العنوان في النص الصوفي:

تعد دراسة في تحليل الخطاب الشعري(دراسة سيميائية) لعصام واصل من أنجع الدراسات النقدية في تحليل النص الشعري، وسبر أغواره العميقة، واستنطاق دلالاته عموماً، وتحليل شعرية العنوان بوصفه فضاءً رحباً للتخييل الصوفي خصوصاً، حيث مثلت هذه الدراسة إضاءة نقدية ثرية وخلفية معرفية كافية جعلت بحثنا يتكئ على مقولاتها، ويستند إلى فلسفاتها العميقة في استنطاق شعرية العنوان في التأملات الشعرية الصوفية. فالعنوان "نافذة تفتح آفاق التخييل، وتشرعه على عوالم صوفية تتوق إلى الدمج بين المعرفي والعرفاني"[31]. بينما العنوان في النص الصوفي يمثل وظيفتين: "وظيفة إغرائية تعمل على إغراء المتلقي من خلال استخدام وسائل لا تكفي بتعريف المحتوى، بل تهدف إلى تشويق المتلقي وإقناعه بجدواها، ووظيفة بنائية تقوم بالإعلان عن جنس الخطاب وعن رؤيا منتجه؛ أي إن العنوان بقدر ما يمثل خيطاً ذهبياً في نسيج وحدة النص فإنه بالقدر نفسه يصير مفتاحاً للقراءة؛ ليصبح بفعل بنيته الشعرية لا يكشف عن مدلولاته الممكنة إلا بعد محاورة النص بمجمله"[32].

ويعد عنوان (حرائق النبيذ[33]) للشاعر شوقي شفيق وما يسوغه من علاقة بين عالم النشوة المعرفي (النبيذ) وعالم الألم الروحي (الحرائق) وهو توق الشاعر إلى خلق متعة جمالية يمتزج فيها الألم بالنشوة، ويسعى عبرها إلى الخلاص من عالم الواقع المثقل بالآلام والانفصال عن عالم المادة المليء بالخطايا، والانتقال منه إلى عالم الطهر والنزاهة.

أيضاً يمثل ديوان (أبجدية الروح[34]) للشاعر المقالح عنواناً يمهد لتشكيل بُنىً داخلية بارزة تتأطر في نسيج صوفي تشكل حقلاً دلالياً تتحرك فيه الأبعاد الدلالية بطريقة تعضد الرؤية الفنية التي يرسمها النص الشعري؛ لتشكل ملمحاً صوفياً واحداً تتولد عبره الرؤيا التي تنطلق منها قصائد الديوان التي تأخذ شكلاً من المعادلات الموضوعية للتناقضات والمفارقات المولدة لدورة الحياة في مستوييها: التجريدي والتجريبي[35]. فالعنوان (أبجدية الروح) "يشرع على عوالم صوفية تتوق إلى الدمج بين المعرفي (أبجدية) والعرفاني (الروح)، وهو توق الصوفي/الشاعر إلى ابتكار أبجدية ثانية تسعى إلى التفلت من الواقع المثقل بالوحشة والخراب والانفصال عن مواضيع القيمة، والانتقال من اللغة المعهودة التي تتمثل في (أبجدية الجسد) إلى لغة انزياحية يستبدلها السياق الصوفي وتتمثل في (أبجدية الروح)"[36] مشكلاً هاجساً صوفياً ذا أبعاد دلالية عميقة.

ويأتي العنوان عند محمد حسين هيثم (اكتمالات سين[37]) ليجسد المعرفي (اكتمالات) والعرفاني الإلهي (سين*) في مسارات من التوحد نحو غاية من القداسة والكمال الذي يعضد الرؤية الفنية التي يرسمها المتن الشعري؛ ليشكل منها ملمحاً صوفياً يكشف عن حدة الصراع بين الذات

---

(27)- ينظر: جبار، مختار (1991م): الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر، ص379.
(28)- واصل، عصام(2010م): في تحليل الخطاب الشعري(دراسة سيميائية)، ط1، دار التنوير، الجزائر، ص 69.
(29)- ينظر: المرجع نفسه، ص 69، 70.
(30)- ينظر: نفسه، ص 70.
(31)- ينظر: واصل، عصام، مرجع سابق، ص 71.
(32)- قحطان، عبد الكريم أسعد(2018م): حوار النص ونص الحوار، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ص44، 45.
(33)- شفيق، شوقي(2002م): ديوان الأرض في بهارات هاويتي، ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر- اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، صنعاء، ص11.
(34)- المقالح، عبد العزيز(2004م): الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، منشورات صنعاء عاصمة الثقافة العربية، الجمهورية اليمنية، ص.338-191
(35)- ينظر: بدري، عثمان(2003م): وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث ــ قراءة تأويلية في نماذج منتخبة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، السنة الحادية والعشرون، العدد الحادي والثمانون، ص24.
(36)- واصل، عصام، مرجع سابق، ص 72.
(37)- ينظر: هيثم، محمد حسين(2004م): الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، منشورات صنعاء عاصمة الثقافة العربية، الجمهورية اليمنية، ص309.
(*)- (سين) هو أحد الآلهة التي كانت تعبد عند اليمنيين القدامى.

وعالمها المادي من جهة، ويشكل الرؤيا الصوفية التي تحتضنها قصائد الديوان التي تأخذ شكلاً من المعادلات الموضوعية، أو عينة من الترميزات الدلالية من جهة أخرى.

2. فاعلية الذات وامتلاكها الفعل الإنجازي:

ما يميز الذات الصوفية في تأملاتها في المتن الشعري من كونها فاعلة تمتلك فاعلية الصعود والرحيل من عالمها الواقعي (المدنس) إلى عالمها العلوي (الروحي)، أو في امتلاكها الفعل الإنجازي الذي يجعلها في مواجهة مع عالمها الروحي بهدف التماهي والحلول في موضوعها.

ومن هذا المنظور الذي تعتمده الذات في صعودها والرحيل من عالمها المادي نجد أن تقنية السرد هي المنزع التعبيري المناسب الذي يحتوي هذه الفاعلية التي تمتلكها الذات، ومن خلالها تتجسد حركية أدائها؛ لترسم حدود الوجود الذي تتحرك في أفقه، ومساحة التعبير وتفاصيله الذي تحس به، ومن خلاله بالأشياء، كما يقول شوقي شفيق:[38]

سأعبُّ من هذا النبيذ رذاذة

وأعبُّ من مطر يجيء إلى الظهيرة دفقة

وأخضُّ أنهاري

لأسكب في مداها شأفتي.

نحن – هنا ـ في تأملات شوقي شفيق الصوفية أمام ذات فاعلة تمتلك حركية السرد، وصنع الحدث، لا ذات منفعلة مستلبة كما عرفناها في التأملات الرومانسية، بل هي ذات صانعة للحدث المشار إليه في(سأعبُّ، وأعبُّ، وأخضُّ، وأسكب)؛ لتتحرك في فضاء نصي ترسمه حركية الأفعال في ترسيمة سردية كاشفة عن تحولات في مواقف الذات التي تتهيأ لقبول حركية الموضوع فيها كما تريد هي، بحيث تكون منها منطلق الصعود في البداية وإليها المنتهى.

وبعد أن تحققت الذات من أنها لا تنهل من معطيات الواقع الخارجي الذي عبرت عنه (سأعب من هذا النبيذ)، وبالمطر(وأعب من مطر يجيء) إلا لتنفيها في تشكيل جديد يحمل معه الهوية المستوعبة وسماتها حيث تخض أنهارها ليس لكي تستخرج منها مخزونها، وإنما لتسكب فيها وجودها الجديد(شأفتها) الذي يحمل هوية الذات الإنسانية الكامنة التي عبرت عنها ذات الشاعر. ومن هنا تتحقق هوية الذات وفاعليتها في إثبات الكينونة؛ بوصفها ذاتاً إنسانية عامة توحدت بحركة الكون وقوانينه وبالمعتقدات الراسخة في وعي المتلقي، بحيث تصير اللغة الشعرية عبر هذه الحركية الفاعلة أكثر إقناعاً وتأثيراً[39].

وبعد أن اطمأنت الذات المتحدثة في إنجازها الفعلي المتمثل في تحقيق غاية الوصول إلى حد الاندماج مع موضوعها نراها تنسحب عن رتبة فاعليتها لصالح موضوعها الذي تولى زمام الفعل والفاعلية معاً، وتظهر الذات وكأنها في استلاب شعوري يجعلها تعبيرياً تقترب من المنزع الرومانسي الذي يبعدها عن منزع رحلتها الصوفية، كما في :[40]

تجتاحني زهراء

تسحقني على جسد مضيء بالنبيذ

وبالحرائق

وقد يجيء ما تمثله الذات الفاعلة في إنجاز ما يعجز النهار عن تحقيقه من خلق وكشف رُؤَوي عن حقيقة ما تستطيع الروح رمزياً أن تمنح وتهدي به العقل إلى معرفة الحقيقة الأبدية كما يقول أدونيس:[41]

قبل أن يأتي النهار أجيء

قبل أن يسأل عن شمسه أضيء

فالنهار يأتي بعد ما تمثله الذات الفاعلة من حضور يجسد أسبقية (الروح) على (العقل) في تصوير المعرفة الكلية. إذ إن النهار صورة عن العقل الذي يعجز عن تحقيق ما تقدر أن تحققه (الروح) من إضاءة معرفية، وأسبقية في وجوده. فالذات تسأل في حركية إنجازية عن تصوير عجزية العقل (النهار) الذي لا يقدر أن يحقق ما تحققه الروح التي تهديه إلى وعيه السليم بالواقع، أو أن معرفة الجزئي والآني الذي ينشغل بتفاصيله العلم والعقل مقترن بمعرفة الأبدي والكلي الذي تكشف عنه الروح.[42]

---

[38]ـ شفيق، شوقي، ديوان الأرض في بهارات هاويتي، مصدر سابق، ص11.
[39]ـ ينظر: قحطان، عبد الكريم أسعد، مرجع سابق، ص50.
[40]ـ شفيق، شوقي، ديوان الأرض في بهارات هاويتي، مصدر سابق، ص11.
[41]ـ أدونيس، علي أحمد سعيد(1971م): الأعمال الكاملة، ط3، دار العودة، بيروت، ص13.
[42]ـ ينظر: قحطان، عبد الكريم أسعد، حوار النص ونص الحوار، مرجع سابق، ص76.

3. مستويات الرؤية الصوفية:

تتسم التأملات الصوفية بوصفها تجربة شعرية مكتنزة لأبعاد دلالية عميقة بعدد من المستويات التي تنطلق من التخلي، ثم التوحد، ثم الوصول إلى التجليات التي هي غاية المنزع الصوفي في كشف تأملاته؛ بهدف الوصول إلى الغاية العرفانية.

وتمثل مستويات الرؤية الصوفية عند الشاعر المقالح ملمحاً شعريا بارزاً، وخيطاً صوفياً ضاجاً بالقيم الجمالية والفنية العميقة، تؤهل الدراسة أن تقف عند عتبات تلك الرؤية، يقول[43]:

أنتِ ما أبصر به الآن

ما كنت أبصر بالأمس

عيناكِ ضوئي

ووجهك نافذتي ودليلي

إذا سألوني عن اسمي أشير إليكِ

إذا سألوني الجواز نثرت على جسدي وجهكِ العربي

المرقع بالجوع

أنتِ أنا

يتكلم في شفتي صوتك الواهن الحرف

لا صوت لي

صرتِ وجهي وضوئي

وعين غدي

يا أميرة حبي وحب الزمان

تبدو تجليات الرؤية الصوفية في بداية المقطع، من محاولة فهم فكرتي التخلي والامتلاك، فالتخلي الذي يعد أحد مستويات التجربة الصوفية، هو تخلي الذات عن أشياء الوجود الحسية الماثلة في منطلقات الرؤية شرطاً أساساً للتوحد وامتلاك العالم الروحي(الوطن)، فالذات المتكلمة في النص قادرة أن تتخلى عن كل شيء في الوجود، إلا عن مدلول هذا الوطن ورمزيته، كاشفة عن المسار الذي يمثله هذا الوطن روحياً لا حسياً. ومن هنا تبدو مسافات الزمن بين الحاضر (الآن) والماضي (الأمس) هي فواصل صورية مفرغة من مدلولاتها الفيزيائية في مسارات التخلي، لكنها وسائل نفاذ ورؤيا لمسارات التوحد مع هذا العالم الروحي المتمثل في صورة (الوطن)، فهذا يعني أن حب الوطن قد تجاوز ملامح الرؤية البصرية في جمال هذا المحبوب (الوطن) والإعجاب به كما تجلى في بداية المقطع إلى أن صارت تمثل نوافذ من الرؤية إلى التحول في عمق التجربة:

عيناكِ ضوئي

ووجهك نافذتي ودليلي

فاختيار العين والوجه وسيلة للرؤيا التعبيرية من دون غيرها من أجزاء الجسد للدلالة على مثاليتهما للذات المتحدثة في البحث عن عالمها الروحي في الوجود الواقعي، وتتجسد فيهما من وسائل الرؤية في رحلة الكشف عن الحقيقة الخالدة. فإذا كانت العين هي وسيلة ضوء معرفي للحقيقة المتمثلة في معرفة الوطن فإن الوجه نافذة وصول إلى غاية التوحد والتماهي معه وفيه عبر مراحل تصنع الحدث التحولي من الواقعي إلى المقدس عبر لغة حجاجية جاءت الصيغة الشرطية هي الكاشفة عن ذلك:

إذا سألوني عن اسمي أشير إليكِ

إذا سألوني الجواز نثرت على جسدي وجهكِ العربي

المرقع بالجوع

ومن هنا تبدأ مرحلة التوحد (الحلول) في تشكيل المستوى الثاني من مستويات الرؤية الصوفية، فيبدو الواقعي مقدساً، والذات هي الموضوع، وهذا التماهي يجسد معالم الحلول الذي بدأه الشاعر بالنفاذ عبر العين والوجه إلى عالمه الخالد عبر(عيناك ضوئي، ووجهك نافذتي ودليلي) وصولاً إلى معالم التحول عبر تقنيتي السؤال والإجابة في (إذا سألوني عن اسمي أشير إليك، إذا سألوني الجواز نثرت على جسدي وجهكِ العربي

[43]- المقالح، عبد العزيز، الأعمال الشعرية الكاملة، مصدر سابق، ص.726

المرقع بالجوع). وعند استيفاء شروط الوصول، وتحقيق غاية المعرفة المتمثلة في رمزية الوطن، جاء الإعلان عن هذا التوحد والحلول كما في قوله:

أنتِ أنا

ومن بعد هذا الحلول والتوحد تبدأ معالم مرحلة التجلي التي تعد إحدى مستويات الرؤية الصوفية، حيث يصبح الموضوع هو الذي ينوب عن الذات في الرؤية التعبيرية، ويتحدث عنها، ويعبر عن شعورها:

يتكلم في شفتي صوتك الواهن الحرف

لأن الذات المتحدثة هنا في النص الشعري بعد أن توحدت مع موضوعها، صارت فاقدة قدرتها التعبيرية، وقوتها التأثيرية:

لا صوت لي

وليس هذا فحسب، بل صارت وسائل نفاذها إلى الموضوع، والوصول إلى معرفته الخالدة المتمثلة في الوطن عبر العين والوجه، تنتقل بها من حالة الجزء إلى الكل:

صرتِ وجهي وضوئي

وعين غدي

فحين كانت العين والوجه وسيلتين جزئيتين في الكشف عن الحقيقة في لحظة التخلي فإننا نراها قد تحولت عبر تقنية الصيرورة إلى بوابة كاشفة عن كلية هذه الحقيقة، فصارت وجهاً وضوءاً وعيناً معاً في لحظة التجلي والكشف عن خلود هذا الوطن وديمومته، والمشار إليه بعالم الغد.

النتائج:

خلص هذا البحث إلى:

- أن التفريق بين منزع التأمل في الشعر الرومانسي والصوفي يمثل موضوعاً جديداً، على وصف أن التأمل رسالة شعرية مكتنزة تتوجه إلى عالم الطبيعة، أو الكون ومحاورته، والتأمل فيه كما هي عند الرومانسيين، ومعبرة عن عوالم علوية تكشف عن حقيقة عرفانية كما هي عند الصوفيين.
- أن التأمل إجمالاً في التجربتين يحمل خطاباً شعرياً يحتضن دلالات جديدة جاءت لتكشف عن جوانب إبداعية في مسار التجربة الشعرية الكلية لدى الشاعر الرومانسي والصوفي معاً.
- أن التأمل في كل من الشعر الرومانسي والصوفي له موضوعاته المضمونية الخاصة، وتجلياته الفنية الإبداعية المميزة.
- أن الشاعر في منزعه التأملي في التجربة الرومانسية استطاع أن يؤسس شعريته التأملية على وفق منطلقات سلطة الموضوع وهيمنته المضمونية، ومعايشة الصراع الجدلي بين الخير والشر، واستلاب الذات أمام سطوة واقعها، وقوة سلطته، والهروب منه إلى عالم الطبيعة بوصفه عالماً بديلاً يحتوي معاناة الذات، ويؤمن مأساتها.
- أن الشاعر في منزعه التأملي في التجربة الصوفية استطاع أن يؤسس تلك الشعرية على مسار سلطة العنوان، وفاعلية الذات، وقدرتها على الصعود إلى عالمها العرفاني، والسير بالتجربة الشعرية على وفق مستويات الرؤية التي تبتدئ بالتخلي عن عالمها الواقعي، ثم الحلول والتوحد والتماهي مع عالمها الروحي وصولاً إلى التجليات المحققة لتلك الحقيقة العرفانية.
- أن هناك فروق فنية عديدة يمتاز بها البعد التأملي الصوفي عن البعد التأملي الرومانسي منها طبيعة الرموز وسياقاتها المرجعية في تحديد المعنى، وجدلية الصراع بين الذات والموت، غير أن الدراسة وقفت عند أهم العلامات الفارقة في مسار تطور التجربة الشعرية الكلية لدى الشاعر الرومانسي والصوفي في منازعهم التأملية.

المصادر والمراجع:

[1] ابن منظور، أبو جمال الدين بن مكرم (1994م): لسان العرب، ط2، دار صادر، بيروت، لبنان.

[2] أبو ماضي ، إيليا(2016م): الديوان، ط1، مكتبة دار الهلال، مصر.

[3] أدونيس، علي أحمد سعيد(1971م): الأعمال الكاملة، ط3، دار العودة، بيروت.

[4] أيوب، رشيد (1982م): أغاني الدرويش، ط1، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك.

[5] بدري، عثمان(2003م): وظيفة العنوان في الشعر العربي الحديث ــ قراءة تأويلية في نماذج منتخبة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، السنة الحادية والعشرون، العدد الحادي والثمانون.

[6] جابر، يوسف (1991م): قضايا الإبداع في قصيدة النثر، ط1، دار الحصاد، دمشق.

[7] جبار، مختار (1991م): الشعر الصوفي في الجزائر في العهد العثماني، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس.

[8] الجردي، وحدة أمين(2005م): أدب التأمل عند المنفلوطي دراسة في نصوص النظرات والعبرات، ط1، دار الفكر اللبناني بيروت.

[9] الجلبي، آن تحسين: (2004م): الرؤية في شعر ذي الرمة، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، المجلد16، العدد8.

[10] حسن، شاكر فريد(2020م) : النزعة الصوفية في أدب جبران خليل جبران، مقالة نقدية على الإنترنت، https: ://short. Link. Alittihad44.com:/w3j5

[11] الحميري، عبدالواسع(1999م): الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان.

[12] خفاجي، محمد عبد المنعم(1980م): قصة الأدب المهجري، ط3، دار الكاتب المصري، القاهرة.

[13] خليل، جبران(2005م): المجموعة الشعرية الكاملة، ط1، بيروت، لبنان.

[14] رزق، أسعد(د.ت): موسوعة علم النفس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

[15] الزبيدي، محمد بن المرتضى(د.ت): تاج العروس في جواهر القاموس،(د.ط)، دار الحياة.

[16] سليمان، عبد الكريم(2019م): الاتجاه الصوفي في الشعر المهجري مكوناته وملامحه، بحث منشور على الإنترنت https: ://dergipark:/Org.tr

[17] شفيق، شوقي(2002م): ديوان الأرض في بهارات هاويتي، ط1، مركز عبادي للدراسات والنشر- اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، صنعاء.

[18] صليبا، جميل(1982م): المعجم الفلسفي، (د.ط)، الجزء الأول، دار الكتب اللبناني، بيروت.

[19] عبيدلي، أحمد (2005م): الخطاب الصوفي في الشعر المغربي في القرنين السادس والسابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر.

[20] عريضة، نسيب (1946م): الأرواح الحائرة، ط1، مطبعة جريدة الأخلاق، نيويورك.

[21] علاق، فاتح (2015م): النزعة التأملية في الشعر العربي الحديث(الرابطة القلمية نموذجاً)، ط1، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق.

[22] قحطان، عبد الكريم أسعد(2018م): حوار النص ونص الحوار، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن.

[23] القرني، عبد الله بن ظافر(1422هـ): ظاهرة التأمل عند شعراء الشام، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية اللغة العربية، قسم الآداب.

[24] مختارية، معزيز(2019م): النزعة التأملية في الشعر العربي الحديث(إيليا أبو ماضي نموذجاً، مقاربة تحليلية)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة جيلالي ليابس/ سيدي بلعباس، كلية الآداب واللغات والفنون.

[25] المقالح، عبد العزيز(2004م): الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، منشورات صنعاء عاصمة الثقافة العربية، الجمهورية اليمنية.

[26] ملحس، ثريا عبد الفتاح(د.ت): القيم الروحية في الأدب العربي قديمه وحديثه، ط1، دار الكتب اللبنانية، بيروت.

[27] نعيمة، ميخائيل(2004م): همس الجفون، ط1، مؤسسة نوفل، بيروت.

[28] هيثم، محمد حسين(2004م): الأعمال الشعرية الكاملة، ط1، منشورات صنعاء عاصمة الثقافة العربية، الجمهورية اليمنية.

[29] واصل، عصام(2010م): في تحليل الخطاب الشعري(دراسة سيميائية)، ط1، دار التنوير، الجزائر.

RESEARCH ARTICLE

MEDITATION ON ROMANTIC AND MYSTICAL POETRY FROM PROBLEMATIC TO SPECIFICATION - A CRITICAL ANALYSIS

Amin Saleh Ahmed Al-Olayani*

Dept. of Arabic Language, College of Education - Saber, University of Lahij, Yemen

***Corresponding author: Amin Saleh Ahmed Al-Olayani; E-mail: aminalyani2020@gmail.com**

Received: 02 June 2022 / Accepted 22 June 2022 / Published online: 30 June 2022

Abstract

This research seeks to study the structure of the contemplative discourse in the Arabic romantic and mystical poetry in the modern era, and identifies the problematic areas in which many scholars fell without differentiating between the refusal of contemplation in the two poetic experiences, and then clarifies the features of his poetry in each experiment in the sample texts under investigation.

The research came in a structure consisting of an entrance showing the concept of meditation, and two sections: the first section deals with the poetry of meditation in the romantic text, and the second topic deals with the poetry of meditation in the mystical text. The romantic and mystical text, and its clear manifestations in the course of each of the two experiences, the contemplation according to which its features became clear, its characteristics and the elements of its poetry became clear, and the research ended with several results, most notably: Meditation on both romantic and mystical poetry has its content themes and manifestations. The artist, in his contemplative tendency in the romantic experience, was able to establish his contemplative poetry according to the premises of the subjects authority and its substantive hegemony, living the dialectical conflict between good and evil, alienating the self in front of the power of its reality, the strength of his authority, and escaping from it to the world of nature as an alternative world. It contains the suffering of the self, and secures its tragedy. While the poet, in his contemplative approach to the mystical experience, bases that poetry on the path of the authority of the title, the effectiveness of the self, and its ability to ascend to its mystical world, and walk the poetic experience according to the levels of vision that begins with abandoning its real world, then solutions, unity and identification with her spiritual world, to the actual manifestations of that mystical truth.

Keywords: Meditation, Poetry, Romance, Mysticism, Problematic, Identification.

كيفية الاقتباس من هذا البحث:

العلياني، أ. ص. أ. (2022). التأمل في الشعر الرومانسي والصوفي من الإشكالية إلى التحديد - مقاربة نقدية. *مجلّة جامعة عدن الإلكترونيّة للعلوم الانسانيّة والاجتماعية*، 3(2)، ص104-115. https://doi.org/10.47372/ejua-hs.2022.2.164

حقوق النشـــر © 2022 من قبل المؤلفين. المرخص لها EJUA، عدن، اليمن. هذه المقالة عبارة عن مقال مفتوح الوصول يتم توزيعه بموجب شروط وأحكام ترخيص Creative Commons Attribution (CC BY-NC 4.0).